«الشُّكْرُ» مفهوماً أخلاقياً
(فَضاءُ التّصوّف الإسلامي)(*)

أ. د. عيسى علي العاكوب(*)

- **المنظورُ الصّوفيُّ العِرْفانيُّ إلى الشُّكْر:**

تَقدّمَ القولُ في شأنِ نَشْأةِ التّصوّفِ وحَقيقتِه. وحَديثُ الصّوفيّةِ عن «الشُّكْرِ» يُشبِهُ حديثَهم عن المَسائلِ المُختلفةِ، وإذا ما عَرَفْنا حقيقةَ التّصوّفِ أدرَكْنا أنّ كلامَ المَشايخِ مَهْما اختلَفَ في الظّاهِرِ ظَلَّ في الواقِعِ قريبًا بعضُه مِن بعضٍ وبَقِيَ كلُّه مرتبطًا بِمعنًى واحِدٍ وحقيقةٍ واحِدة. أمّا الاختلافُ في التّعبيراتِ فناشئٌ عن الاختلافِ في أحوالِ القائلينَ ومَقاماتِهم ومَراتبِهم ودَرجاتهم، وكُلُّ واحِدٍ يتحدّثُ عن منزِلَتِه هو، ويُعبِّرُ عن المَقامِ والدَّرَجةِ التي هو فيها. وأمْرٌ آخَرُ هو أنّ السَّيْرَ والسُّلوكَ الرُّوحانيَّ، مِن دَرَجةِ الانقطاعِ والطَّلَبِ إلى مَقامِ الفَناءِ في الله، لَهُ مَراتِبُ ومَقاماتٌ ودَرَجاتٌ وأحوالٌ وأوقاتٌ مختلفةٌ، ولِلسّالِكِ في كُلِّ مرحلةٍ حالٌ ومَقامٌ خاصٌّ»(١).

(*) ما يأتي في هذا العَدَدِ هو ما وَعَدْنا به القارئَ الكريم في العَدَدِ السّابقِ الذي عَرَضْنا فيه جُزْئيّةَ الموضوعِ المتّصِلةَ بِـ«فضاء ما قَبْلَ التّصوّف»، إذ يجِد القارئُ هنا المسألةَ في فضاءِ التّصوّف.

(*) عُضْوُ مَجْمَعِ اللّغةِ العربيّةِ في دِمَشْق، أستاذُ البلاغةِ والنّقدِ في جامعةِ حَلَب.

ورد إلى مجلة المجمع بتاريخ ٨/ ١/ ٢٠٢٠م.

(١) سيّد جعفر سجّادي: فرهنگْ اصطلاحاتِ وتعبيرات عرفانى [بالفارسيّة] الطّبعة التّاسعة، انتشارات طهورى، طهران ١٣٨٩هـ.ش-٢٠١٠م، ص٢٤٣.

وفي عَرْضِنا المنظورَ إلى «الشُّكْرِ» في التّصوّفِ الإسلاميّ، نَرَى ضَرورةَ تقديمِ نَموذجَيْنِ هما: ١- العباراتُ المُفْردةُ السّائرةُ. ٢- المُناقَشاتُ التّأصِيليّةُ المُفصَّلة.

- **الشُّكْرُ في العِباراتِ المُفْردةِ لِأَعْلامِ التّصوّفِ وفي الحِكايات:**

يُمثِّلُ تَطوُّرُ مفهومِ «الشُّكْرِ» في الإسلامِ تَقدُّمًا بِاتّجاهِ النُّضْجِ الرّوحيِّ والفكريِّ الذي شَرَعَهُ القُرآنُ والرَّسُولُ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ. فَبَدْءًا مِن منتصف القرنِ الثّاني الهجريّ تقريبًا، ومَعَ حَرَكةِ العِلْمِ والمُدارَسةِ والتّحقيقِ في مَوادِّ العلومِ والمعارف، بَرَزَ إلى الوجودِ أفرادٌ كُلٌّ عناصِرِ سُلُوكِهم عِلْمٌ، وكُلٌّ مُكوِّناتِ كلامِهم عِلْم: أفرادٌ لا يَرَونَ مقصودًا غَيْرَ اللهِ سُبْحانَه، ولا يَجِدونَ في قلوبِهم محبوبًا حقيقيًّا سِواه. والمُلاحَظُ في حَيَواتِ كثيرٍ مِنهم أنّه أُتيحَ له في حَياتِه مَحْبوبٌ دُنيويٌّ مضى في سَبيلِه بَعِيدًا، ثُمّ تَراهُ انقلَبَ عَلَيْهِ ومضَى في ضِدِّهِ الدِّينيِّ الرّوحيِّ إلى الآخِر. وأُعِيدُ إلى الأذهانِ في هذا الذي نحنُ فيه، تذكُّرَ حَيَواتِ إبراهيمَ بنِ أَدْهَم ورابعةَ العَدَويّةِ والفُضَيلِ بنِ عِياض وأبي حامدٍ الغزاليّ وآخَرينَ كثير.

ويَبْدُو أنّ كَثْرةَ العارفينَ الإلهيّينَ والسّالكينَ لِطَريقِ المحبّةِ الإلهيّةِ ابتداءً مِن مُنتصَفِ القَرْنِ الثّاني نشأ عنها ثَقافةٌ صُوفيّةٌ عِرْفانيّةٌ شَفَهيّةٌ انشغَلَتْ بِحَقائقِ الحالاتِ الرّوحيّةِ ووَضْعِ الحُدودِ لِلْأحوالِ والمقاماتِ التي يَعيشُها السّالكونَ. وابتداءً مِن مَطْلَعِ القَرْنِ الثّالِثِ الهجريّ تقريبًا، أَخَذْنا نَشْهَدُ مِيلادَ عِلْمِ نَفْسٍ صُوفيٍّ واضِحِ المَعالِم. ويُقدِّمُ مفهومُ «الشُّكْرِ» مِثالًا جَيِّدًا لِهذه المُسارَعةِ إلى تقديمِ الحُدودِ والتّعريفات. ويُنبِئُ ذلكَ بِغَيْرِ رَيْبٍ عن قَصْدٍ بَيِّنٍ إلى إفهامِ حَقائقِ الحالاتِ الرّوحيّة.

ويَبْدُو لِعَيْنِ البَصيرةِ أنّ التّشقيقَ في المعاني والتّحقيقَ في طبيعةِ

العناصِرِ والمُكوِّنات مَردُّه نُزوعٌ إلى إفهامِ المعاني القُرآنيّةِ التي جاءَتْ مُجْمَلةً في أحيانٍ كثيرة. ومِن ذلكَ تفصيلُ القولِ في مفهومِ شُكْرِ اللهِ سُبْحانَه وشُكْرِ الإنسان، فإنّ «حقيقةَ الشُّكْرِ عندَ أَهْلِ التّحقيقِ الاعترافُ بنِعْمةِ المُنْعِمِ عَلَى وَجْهِ الخضوع، وعَلَى القولِ بوَصْفِ الحَقِّ سُبْحانَه بأنّه «شَكُورٌ» تَوَسُّعًا، ومَعْناهُ أنّه يُجازي العَبْدَ عَلَى الشُّكْر. فسَمَّى جَزاءَ الشُّكْرِ شُكْرًا، كما قالَ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: ٤٠]. وقِيلَ: شُكْرُه [الحَقّ] إعطاؤه الكثيرَ مِن الثَّوابِ عَلَى العَمَلِ اليسير، مِن قَوْلِهِم: دابّةٌ شَكُورٌ: إذا أظهَرَتْ مِن السِّمَنِ فوقَ ما تُعطَى مِن العَلَفِ. ويُحتمَلُ أن يُقالَ: حَقيقةُ الشُّكْرِ الثّناءُ عَلَى المُحْسِنِ بذِكْرِ إحْسانه: فشُكْرُ العَبْدِ لله تعالَى ثَناؤه عَلَيْهِ بذِكْرِ إحْسانِهِ إلَيْهِ، وشُكْرُ الحَقِّ سُبْحانَه لِلْعَبْدِ ثَناؤهُ عَلَيْهِ بذِكْرِ إحْسانِهِ لَهُ. ثمّ إنّ إحْسانَ العَبْدِ طاعتُه للهِ تعالى، وإحْسانَ الحَقِّ إنْعامُه عَلَى العَبْدِ بالتّوفيقِ لِلشُّكْرِ له»[٢].

ويَنظُرُ التّصوّفُ إلى الشُّكْرِ مِن جِهةِ الجارحةِ أَوِ الآلةِ التي تُؤدّيهِ في الإنسان، وعَلَى ذلك هو: «شُكْرٌ باللِّسانِ، وهو اعترافُه بالنّعمةِ بنَعْتِ الاستكانةِ، وشُكْرٌ بالبَدَنِ والأركان، وهو اتّصافٌ بالوِفاقِ والخِدْمةِ، وشُكْرٌ بالقَلْبِ، وهو اعتكافٌ عَلَى بِساطِ الشُّهودِ بإدامةِ حِفْظِ الحُرْمة»[٣]. وهذه تصنيفاتٌ لِلشُّكْرِ تَلْحَظُ دَرَجةَ تحسُّسِ النّعمةِ الإلهيّةِ عندَ الشّاكِر، وتُعَبِّرُ عن وَعْيٍ عالٍ في عِلْمِ النّفْسِ الصّوفيّ. فمَنازِلُ السّائرينَ في طَريقِ الحَقِّ تعالى كثيرةٌ ومُتباينةٌ. ويُشيرُ وَعْيُ هذا إلى إصْرارٍ عندَ السّالكينَ عَلَى ضَرورةِ بُلوغِ الغايات، وتحمُّلٍ لِاجتيازِ العقباتِ. وليس الأَمْرُ أَمْرَ فِكَرٍ مُجرّدةٍ يُهْذَى بها ويُهْذَرُ.

ثمّ في داخِلِ مفهومِ الشُّكْرِ نفسِه مُنْعَرَجاتٌ دَقيقةٌ لاحظَتْها الأرواحُ

(٢) أبو القاسِم عبدُالكريم القُشَيريّ، الرّسالةُ القُشَيريّةُ في عِلْمِ التّصوّف، سابق، ص٨١.
(٣) السّابق، ص٨١.

العارفةُ، فقد «قالَ الجُنَيدُ: الشُّكْرُ فيه عِلّةٌ؛ لِأنّه [الشّاكرَ] طالِبٌ لِنَفْسِه المَزيدَ، فهو واقفٌ معَ اللهِ تعالَى عَلَى حَظِّ نَفْسِه. وقالَ أبو عُثْمانَ: الشُّكْرُ معرفةُ العَجْزِ عن الشّكْرِ. ويُقالُ: الشُّكْرُ عَلَى الشُّكْرِ أَتَمُّ مِن الشُّكْرِ؛ وذلك بِأن تَرَى شُكْرَكَ بِتَوْفيقِهِ، ويكونَ ذلكَ التّوفيقُ مِن أَجَلِّ النِّعَمِ عَلَيْكَ، فتَشكُرُه عَلَى الشُّكْرِ، ثمّ تَشكُرُه عَلَى شُكْرِ الشُّكْرِ إلى ما لا يتناهَى»(٤).

ويُفيدُ التّنظيرُ الصّوفيُّ في موضوعِ الشُّكْرِ مِن المُعْجَمِ القرآنيّ: فيَميزُ بَيْنَ الشّاكِرِ والشَّكُورِ، فقد قِيلَ: «الشّاكِرُ الذي يَشْكُرُ عَلَى الموجودِ، والشّكُورُ الذي يَشْكُرُ عَلَى المفقود. ويُقالُ: الشّاكِرُ الذي يَشْكُرُ عَلَى الرِّفْدِ، والشَّكُورُ الذي يَشْكُرُ عَلَى الرَّدّ. ويُقالُ: الشّاكِرُ الذي يَشْكُرُ عَلَى النَّفْعِ، والشّكُورُ الذي يَشْكُرُ عَلَى المَنْعِ. ويُقالُ: الشّاكِرُ الذي يَشْكُرُ عَلَى العطاءِ، والشّكورُ الذي يَشْكُرُ عَلَى البَلَاءِ. ويُقالُ: الشّاكِرُ الذي يَشْكُرُ عندَ البَذْل، والشّكُورُ الذي يَشْكُرُ عند المَطْلِ»(٥).

وتكادُ هذه التّعريفاتُ والحُدودُ لِلشُّكْرِ تكونُ مُتّفِقةً عَلَى دَرَجتَيْنِ لِهذا المَقام، وعَلَى أنّ «الشَّكُورَ» في غايةِ المحبّةِ لِرَبِّه، وفي مُنتهَى الفَناءِ عن نَفْسِه، وعَلَى أنّه مُتخلِّقٌ بِدَرجةٍ عاليةٍ مِن الإيمانِ، عَبّرَ عنها حديثُ رَسُولِ الله عَلَيْهِ الصّلاةُ والسَّلامُ بِالقَوْلِ: «لا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حتّى يكونَ هَواهُ تَبَعًا لِما جئتُ به»(٦). ويُفْهَمُ استنباطًا أنّ «الشَّكُورَ» مِن الخَلْقِ مُتخلِّقٌ بِأخلاقِ اللهِ وبِأخلاقِ الرّسولِ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ؛ لِأنّ كُلًّا مِنهما وَصَفَ ذاتَه بِـ«الشَّكُور» كما تقدّمَ.

---

(٤) نفسُه.

(٥) نفسُه.

(٦) الإمام النّوويّ، شَرْح مَتْنِ الأربعينَ النّوويّة، بعناية لويس بوزيه، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٢م، ص٦٠.

وتنبَّهَ التّصوّفُ الإسلاميُّ عَلَى تَصْنيفٍ لِلشُّكْرِ عَلَى مستوى الجَماعاتِ والفِئاتِ، فإنّه يُتحدَّثُ فيه عن «شُكْرٍ هو شُكْرُ العالِمينَ يكونُ مِن أقوالِهم، وشُكْرٍ هو نَعْتُ العابِدينَ يكونُ نوعًا مِن أفعالِهم، وشُكْرٍ هو شُكْرُ العارفينَ يكونُ باستقامتِهم له [تعالَى] في عُمومِ أحوالِهم... وقال أبو عُثْمانَ: شُكْرُ العامّةِ عَلَى المَطْعَمِ والمَلْبَسِ، وشُكْرُ الخواصِّ عَلَى ما يَرِدُ عَلَى قُلوبِهم مِن المَعاني»[٧]. وفي ذلكَ كُلِّه تفتيقٌ لِمَعْنَى الشُّكْرِ وتفصيلٌ لِمَفهُومِه، مَرْجِعُهما حِرْصٌ جَدَّ لِأفرادٍ مِن الأمّةِ عَلَى فَهْمِ الأشياءِ عَلَى ما هي عَلَيْهِ. وفيه أيضًا دَلِيلٌ عَلَى ما أحدثَ الإسلامُ عندَ أبناءِ الأمّةِ مِن حَساسيّاتٍ تَشُقُّ الشَّعْرةَ، كما يُقالُ، في تَحْلِيلِ دَخائلِ النّفوس.

وقد صَبَّ في خِضَمِّ ثقافةِ التّصوُّفِ الإسلاميِّ وحَرَكةِ التّأليفِ فيه تَيّارٌ ظاهِرٌ مِن حِكاياتٍ صُوفيّةٍ عن شُكْرِ الأنبياء. ويُساعِدُ طابَعُ القَصِّ في هذه الحِكاياتِ، وعُنْصُرُ الطّرافةِ فيها، وقابليّةُ القَبُولِ لِمَضمونِاتها، عَلَى إشاعةِ خِبْرةٍ صُوفيّةٍ واسِعةٍ مِحْوَرُها الذي تَدُورُ عَلَيْهِ مفهومُ الشُّكْرِ. ومِن ذلكَ أنّه قِيلَ: «قالَ داوودُ عَلَيْهِ السّلامُ: إلهي، كيفَ أَشْكُرُكَ وشُكْري لَكَ نِعْمةٌ مِن عِنْدِكَ؟- فأوحَى اللهُ إلَيْهِ: الآنَ قد شَكَرْتَني. وقِيلَ: قالَ موسى عَلَيْهِ السّلامُ في مُناجاتِهِ: إلهي، خَلَقْتَ آدَمَ بِيَدِكَ وفَعَلْتَ وفَعَلْتَ، فكَيْفَ شَكَرَكَ؟- فقالَ: عَلِمَ أنّ ذلك مِنّي، فكانَتْ معرفتُه بِذلكَ شُكْرَه لي... وقِيلَ: مَرَّ بعضُ الأنبياءِ، عَلَيهِم السَّلامُ، بِحَجَرٍ صَغيرٍ يَخرُجُ مِنهُ الماءُ الكثيرُ، فتعجَّبَ مِنه. فأنطقَه اللهُ تعالَى معَه فقالَ: مُذْ سَمِعْتُ اللهَ يَقُولُ: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التّحريم: ٦]، وأنا أبكي مِن خَوفِهِ. قالَ: فَدَعا ذلكَ النّبيُّ أن يُجِيرَ اللهُ ذلكَ الحَجَرَ. فأَوحَى اللهُ تعالَى إليه: إنِّي أَجَرْتُه مِن النّار. فمَرَّ ذلكَ النّبيُّ،

(٧) الرّسالة القُشيريّة، سابق، ص٨١.

فلَمّا عادَ وَجَدَ الماءَ يتفجّرُ مِنهُ، مِثْلَ ذلكَ. فَعَجِبَ، فأنطقَ الله تعالَى ذلكَ الحَجَرَ معَه، فقالَ له: لِمَ تبكي وقد غَفَرَ اللهُ تعالَى لَكَ؟ فقالَ: ذلكَ كانَ بُكاءَ الحُزْنِ والخَوْفِ، وهذا بُكاءُ الشُّكْرِ والسُّرور»[٨].

وقد انطوَتْ مَصادِرُ التّصوّفِ عَلَى ضَرْبٍ مِن القَصِّ المُوضِحِ لِأبْعادٍ خاصّةٍ لِمَفْهُومِ الشُّكْر. ومَصْدَرُ بعضِ قِصَصِ هذا اللَّوْنِ الحياةُ العربيّةُ نَفْسُها. ومِن ذلكَ ما يُحْكَى مِن أنّه قَدِمَ وَفْدٌ عَلَى عُمَرَ بنِ عبدِالعزيز، وكان فِيهم شابٌّ، فأخَذَ يخطُبُ. فقالَ عُمَرُ: الكِبَرَ الكِبَرَ. فقالَ الشّابُّ: يا أَمِيرَ المُؤمنينَ، لو كانَ الأَمْرُ بِالسِّنِّ لَكانَ في المُسْلِمينَ مَن هو أَسَنُّ مِنْكَ. فقالَ: تَكلَّمْ. فقالَ: لَسْنا وَفْدَ الرَّغْبةِ ولا وَفْدَ الرَّهْبة. أَمّا الرَّغْبةُ فقد أوصَلَها إلينا فَضْلُكَ، وأَمّا الرَّهْبةُ فقد آمَنَنَا مِنْها. فقالَ: فَما أنتُم؟- فقالَ: وَفْدٌ لِلشُّكْرِ، جئناكَ نَشْكُرُكَ وننصَرِفُ. وأنشَدُوا:

ومِنَ الرّزِيّةِ أنّ شُكْرِي صامِتٌ عَمّا فَعَلْتَ، وأنّ بِرَّكَ ناطِقُ
وأَرَى الصَّنيعةَ مِنْكَ ثمّ أُسِرُّها إنِّي إِذَنْ لِيَدِ الكريمِ لَسارِقُ[٩]

ويَتّسِمُ بَعضُ قِصَصِ الشُّكْرِ بِالطَّرافةِ والغَرابة، ويُشيرُ إلى ضَرْبٍ مِن الشُّكْرِ المُتواصِلِ الذي يكونُ فيه العَبْدُ لِرَبِّه لا لِخُوَيصَّةِ نفسِه. فقد حُكِيَ عن بعضِهم أنّه «قالَ: رأيتُ في بعضِ الأَسْفارِ شَيْخًا كبيرًا قد طَعَنَ في السِّنِّ، فسَأَلْتُه عن حالِهِ، فقال: إنّي كُنْتُ في ابتداءِ عُمُري أَهْوَى ابنةَ عَمٍّ لي، وهي لِي كذلك تَهْواني؛ فاتَّفَقَ أَنّها زُوِّجَتْ مِنِّي. فلَيلةَ زَفافِها قُلْنا: تعالَ حتّى نُحْيي هذه اللَّيلةَ شُكْرًا للهِ تعالَى عَلَى ما جَمَعَنا. فصَلَّيْنا تلكَ اللّيلةَ ولم يتفرَّغْ أَحَدُنا لِصاحِبِه. فلَمّا كانتِ اللّيلةُ الثّانيةُ قُلْنا مِثْلَ ذلكَ؛ فمُنذُ سَبْعِينَ أو ثَمانِينَ سنةً، نحنُ عَلَى تلكَ الصِّفةِ كُلَّ

(٨) نفسه، ص٨١-٨٢.

(٩) نفسه.

لَيْلةٍ. أليس كذلكَ يا فُلانةُ؟ فقالَتِ العَجُوزُ: كما يقولُ الشّيخ»[١٠].

ويَبْدُو أنّ بِيئاتِ التّصوّفِ كانَتْ تَتداوَلُ أحيانًا حُدودَ المَقاماتِ والمَنازِلِ وحَقائقَ المفهوماتِ الصّوفيّة. وقد يكونُ لِصِغارِ السِّنِّ نَصيبٌ مِن ذلكَ، وما ذلكَ إلّا لِأنّ مَجالِسَ القَوْمِ كانَتْ مَدارسَ في التّربيةِ الرّوحيّةِ وتهذيبِ النّفوسِ وصَقْلِ الأرواح. ويُرْوَى عن إمامِ الطّائفةِ السّيّدِ الجُنَيْدِ رَحِمَه اللهُ أنّه قالَ: «كُنتُ بينَ يَدَي السَّرِيِّ [السَّقَطيّ] أَلْعَبُ، وأنا ابنُ سَبْعِ سِنينَ، وبَيْنَ يَدَيْهِ جَماعةٌ يتكلّمونَ في الشُّكْرِ، فقالَ لِي: يا غُلامُ: ما الشُّكْرُ؟- فقُلْتُ: أَلّا تَعْصِيَ اللهَ بِنِعْمةٍ. فقالَ: يُوشِكُ أن يكونَ حَظُّكَ مِن اللهِ تعالَى لِسانَكَ. فلا أَزالُ أبكي عَلَى هذه الكلمةِ التي قالَها السَّرِيُّ!»[١١].

ومِثْلُ هذا تمامًا ما يُقالُ مِن أنّ الجُنَيدَ قال: «كان السَّرِيُّ إذا أرادَ أن ينفعَني يَسْأَلُني، فقالَ لِي يومًا: يا أبا القاسِمِ، إيش الشُّكْرُ؟- فقُلْتُ: أَلّا يُستعانَ بِشَيءٍ مِن نِعَمِ اللهِ تعالَى عَلَى مَعاصِيهِ. فقالَ: مِن أينَ لَكَ هذا؟- فقُلْتُ: مِن مُجالَسَتِكَ»[١٢].

- **الشُّكْرُ في المُناقَشاتِ التّأصيليّةِ المُفصَّلة:**

يُلاحِظُ المُتابِعُ لِحرَكةِ التّأليفِ في التّصوّفِ الإسلاميّ تَقدُّمًا مِن الأَقْوالِ المُفْردةِ في الأبوابِ المُختلفةِ نَحْوَ المُؤلَّفاتِ التي تنحو نَحْوَ التّناوُلِ التّأصيليّ التّفصيليّ. ويَعِنُّ لِلْخاطِرِ هنا مُؤلَّفاتٌ صُوفيّةٌ مِن قَبيلِ «قُوت القُلوبِ في مُعامَلةِ المحبوب» لِأبي طالِبٍ المَكّي (ت ٣٨٦هـ)، و«إِحْياءِ عُلومِ الدّين» لِأبي حامدٍ الغَزالي (ت ٥٠٥هـ)، وغَيْرِ هذَيْنِ. وقد بَدَتْ لي فائدةٌ في إثْباتِ لُبابِ ما

(١٠) نفسه، ص٨٢.

(١١) نفسه، ص٨١. وكان السَّرِيُّ خالَ الجُنَيد.

(١٢) نفسه، ص٨٢.

قدّمَه الغَزاليُّ في هذا الكتابِ في شأنِ مفهومِ الشُّكْر. وينطوي ما كتَبَه في هذا الشّأنِ عَلَى تَطْويرٍ كبيرٍ لِلْبِنْيةِ المفهوميّة لِ «الشُّكْر».

- **البِنْيةُ المفهوميّةُ لِفِكْرة «الشُّكْر» عندَ الغَزاليّ:**

جاء حديثُ الغزاليِّ عن «الشُّكْرِ» في المجلَّدِ الرّابع مِن كِتابِهِ الإحياء، حَيْثُ يجعَلُ العنوانَ الكامِلَ هكذا: «كِتابُ الصَّبْرِ والشُّكْر» - وهو الكتابُ الثّاني مِن رُبْعِ المُنْجياتِ مِن كِتابِ (إحياء عُلُومِ الدّين). وقالَ المؤلِّفُ في تَضاعيفِ التّقديم: «إنّ الإيمانَ نِصْفانِ: نِصْفٌ صَبْرٌ ونِصْفٌ شُكْرٌ، كما وَرَدَتْ به الآثارُ وشهدَتْ له الأخبارُ. وهما أيضًا وَصْفانِ مِن أوصافِ الله تعالى، واسْمانِ مِن أسمائِهِ الحُسْنى، إذ سَمَّى نفسَه صَبُورًا وشَكُورًا. فالجَهْلُ بِحقيقةِ الصَّبْرِ والشُّكْرِ جَهْلٌ بِكلا شَطْرَي الإيمان، ثمّ هو غَفْلةٌ عن وَصْفَيْنِ مِن أوصافِ الرّحمن... ونحنُ نُوضِحُ كِلا الشَّطْرَيْنِ في كتابٍ واحِدٍ لِارتباطِ أَحَدِهما بِالآخَرِ، إن شاء اللهُ تعالى»[١٣].

وبَعْدَ أن أنهى المؤلِّفُ الحديثَ عن الصّبر أخذَ في الحديث عن «الشُّكْر»، وبَنى حديثَه فيه عَلَى ثلاثةِ أركانٍ هي: فضيلةُ الشُّكْرِ وحقيقتُه وأقسامُه وأحكامُه، وحقيقةُ النِّعمةِ وأقسامُها الخاصّةُ والعامّةُ، وبَيانُ الأفضَلِ مِن الشُّكْرِ والصّبر. ويُهِمُّنا هنا مِن هذه جميعًا حديثُه في «بيانِ حَدِّ الشُّكْرِ وحقيقته».

يجعَلُ الغزاليُّ الشُّكْرَ مِن جُمْلةِ مَقاماتِ السّالِكينَ، ويُحدِّدُ له ثلاثةَ مُكوِّناتٍ هي: العِلْمُ والحالُ والعَمَلُ. ويَجْعَلُ العِلْمَ هو الأَصْلَ الذي يُورِثُ الحالَ، الذي يُورِثُ هو نفسُه العَمَلَ[١٤]. ثمّ يُوضِحُ مَعانيَ هذه المُكوِّنات: «فأمّا العِلْمُ فهو مَعْرِفةُ النِّعْمةِ مِن المُنْعِم، والحالُ هو الفَرَحُ الحاصِلُ

(١٣) الغزالي: إحياء علوم الدّين، سابق، ج٤ ص٦٠.

(١٤) السّابق، ج٤ ص٨١.

بإنعامِهِ، والعَمَلُ هو القِيامُ بِما هو مقصودُ المُنْعِمِ ومحبوبُه»[١٥].

وهكذا تبدو البِنْيةُ المفهوميّةُ لِـ «الشُّكْرِ» مُركَّبةً عندَ الغزاليّ مِن عناصِرَ نفسيّةٍ باطنيّة يدفَعُ بَعْضُها إلى بعضٍ في تَسَلْسُلٍ عِلِّيٍّ، انتبَه إليه العارفونَ الإلهيّونَ في سَيْرِهم وسُلوكِهِم. وحقيقةٌ أنّ الغَزاليَّ يتمتّعُ بِذِهْنٍ في غايةِ القدرةِ عَلَى التّحليلِ والتَّعْليلِ والتّنظيم، لكنّه في أثناءِ إعدادِ كتابِه الإِحْياءِ كان يعيشُ هو نفسُه الحالاتِ الرُّوحيّةَ التي يتحدّثُ عنها، فإنّ هذا الكتابَ «عَرْضٌ في غايةِ التّنظيمِ والشُّمولِ لِلْعَناءِ الرّوحيِّ لِقَلْبِ الإنسانِ مَعَ وَصَفاتٍ لِكيفيّةِ مُعالَجتِه. إنّه كتابٌ في عِلْمِ المُعامَلاتِ، بِتَعْبيرِ الغَزاليِّ نَفْسِه. ويمكنُ أن نفترضَ باطمئنانٍ، تَبَعًا لِذلكَ، أنّ مُحتَوَياتِ الإحياءِ ذاتُ صِلَةٍ بِما كان يعيشُه ويُعانِيهِ يوميًّا بِما هو صُوفيٌّ. وإضافةً إلى ذلك، مُهِمٌّ تَمامًا، حِينَ نَدْرُسُ فَذاذةَ(*) الغزاليّ في التّقليدِ الصّوفيّ، أن نتذكّرَ أنّ كُلَّ رياضاتِه تقريبًا كانَتْ تُؤدَّى في عُزْلةٍ»[١٦].

ثمّ يتقدّمُ الغزاليُّ لِيُفصِّلَ القَوْلَ في كُلٍّ مِن عناصِرِ الشُّكْرِ: العِلْمِ والفَرَحِ والعَمَلِ. فالعِلْمُ يتناوَلُ أيضًا ثلاثةَ أمور هي: العِلْمُ بِعَيْنِ النِّعْمة، وبِوَجْهِ كَوْنِها نِعْمةً في حَقِّ السّالِك، وبِذاتِ المُنْعِمِ وصِفاتِه التي يتمُّ بِها الإنعامُ ويَصْدُرُ الإنعامُ مِنهُ عَلَيْهِ. ولا بُدَّ هنا مِن نِعْمةٍ ومُنْعِمٍ ومُنْعَمٍ عَلَيْهِ تَصِلُ إليه النِّعْمةُ مِن المُنْعِمِ بِقَصْدٍ وإرادة. ويُبيِّنُ الغَزاليُّ هنا أنّ هذا العِلْمَ يَمُرّ بِثَلاثِ مَراحِلَ: التّقديسُ والتّوحيدُ وصُدورُ كُلِّ ما في العالَمِ عن المُقدَّسِ الواحِدِ، فإنّ الرُّتبةَ

(١٥) نفسه.

(*) استعمال (فَذاذة) بمعنى فرادة لم يُسمَع عن العرب، ولا نصَّت عليه معاجم العربية، فكأنّه مولَّدٌ معاصرٌ، ولسنا على يقين من وجه قياسيٍّ فيه. = [المجلة].

(١٦) NAKAMURA, KOJIRO, GHAZALI AND PRAYER. Islamic Book Trust, Kuala Lumpur, 2001, p. 20.

الأُولَى في مَعارِفِ الإيمانِ هي التّقديسُ، فمعرفةُ الذّاتِ المُقدَّسةِ ينشَأ عنها معرفةُ أنّ المُقدَّسَ واحِدٌ وما عَداهُ غيرُ مُقدَّسٍ، وهذا هو التّوحيدُ. ثمّ معرفةُ المُقدَّسِ الواحِدِ يَنشأُ عنها معرفةُ أنّ كُلَّ ما في العالَمِ موجودٌ مِن ذلك الواحِد. وتنطوي هذه المعرفةُ عَلَى تقديسِ الحَقِّ وتَوْحِيدِه وكَمالِ قُدْرَتِه تعالَى وانفرادِه بالفِعْل. وهذا ما عَبَّرَ عنه رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ بالقولِ: «مَن قال: سُبْحانَ اللهِ فلَهُ عَشْرُ حَسَناتٍ، ومَن قالَ: لا إلهَ إلّا اللهُ فلَهُ عِشْرُونَ حَسَنةً، ومَن قالَ: الحَمْدُ للّه فلَه ثَلاثونَ حَسَنةً»... ولا تَتأتَّى هذه الحَسَناتُ مِن تحريكِ اللِّسانِ بهذه الكلماتِ، بل لا بُدَّ مِن حُصولِ مَعانيها في القَلْب. والأقوالُ الثّلاثةُ تعني عَلَى الولاءِ: التّقديسَ، والتّوحيدَ، والنِّعْمةَ مِن الواحِدِ الحَقِّ[١٧].

ويُبيِّنُ الغَزاليُّ حقيقةَ الشُّكْرِ بالتِزامِ تَعلُّقٍ عَقَديٍّ بينَ معارفِ الإيمانِ أو الشُّكْرِ هذه، بالقَوْلِ: «لا تَشْكُر إلّا بأن تَعْرِفَ أنّ الكُلَّ مِنْهُ، فإن خالَجَكَ رَيْبٌ في هذا لم تكُنْ عارفًا لا بالنِّعْمةِ ولا بالمُنْعِم، فلا تَفرَح بالمُنْعِمِ وَحْدَه، بل وبغَيْرِه، فَبِنُقْصانِ معرفتِكَ ينقُصُ حالُكَ في الفَرَح، وبِنُقْصانِ فَرَحِكَ ينقُصُ عَمَلُكَ»[١٨].

ويُفصِّلُ الغزاليُّ القَوْلَ في شأنِ الأَصْلِ الثّاني، أو العنصُرِ الثّاني، مِن عناصِرِ «الشُّكْرِ»، وهي الحالُ النّاشئةُ مِن المعرفةِ، وهو الفَرَحُ بالمُنْعِم مَعَ هيئةِ الخضوعِ والتّواضُع. وعِنْدَه أنّ هذا الفَرَحَ عَيْنَه شُكْرٌ، مِثْلَما أنّ المعرفةَ شُكْرٌ، لكنْ كَوْنُه شُكْرًا مشروطٌ بكَوْنِهِ فَرَحًا بالمُنْعِمِ، لا بالنِّعْمةِ ولا بالإنعام. ولِذلكَ قالَ الشِّبْليُّ رَحِمَهُ اللهُ: «الشُّكْرُ رُؤيةُ المُنْعِم، لا رُؤيةُ النِّعْمةِ»[١٩].

ثمّ يُوضِحُ صاحِبُ الإحياءِ الأَصْلَ الثّالِثَ، أو العنصُرَ الثّالِثَ مِن عناصِرِ

(١٧) إحياء علوم الدّين، سابق، ج٤ ص٨٢، بتصرّفٍ يَسير.

(١٨) السّابق، ص٨٣.

(١٩) نفسه، ص٨٣-٨٤.

«الشُّكْر»، وهو العَمَلُ الذي يُمْلِيهِ الفَرَحُ النّاشئُ عن معرفةِ المُنْعِم. وهذا العَمَلُ يَنهضُ به عندَ الغزاليِّ ثلاثُ أَدَواتٍ، هي القَلْبُ واللِّسانُ والجوارِحُ. ويعني عَمَلُ القَلْبِ قَصْدَ الخَيْرِ لِلْخَلْقِ جميعًا، ويعني عَمَلُ الجَوارِحِ استعمالَ نِعَمِ اللهِ تعالَى في طاعَتِه فقط[٢٠].

ويُقدِّم صاحِبُ الإِحْياءِ تحليلًا لِلْعباراتِ المفردةِ الجامِعةِ التي لاحَظْناها قَبْلُ، ويُبيِّنُ أنّ هذه العباراتِ لا ينطبقُ عَلَيها الحَدُّ المنطقيُّ الجامِعُ المانِعُ، بل تَلْحَظُ أحوالًا خاصّةً عندَ قائليها: «فأمّا قَوْلُ مَن قال: إنّ الشُّكْرَ هو الاعترافُ بِنِعْمةِ المُنْعِمِ عَلَى وَجْهِ الخضوعِ فهو نَظَرَ إلى فِعْلِ اللِّسانِ معَ بعضِ أحوالِ القَلْبِ. وقَوْلُ مَن قالَ: إنّ الشُّكْرَ هو الثَّناءُ عَلَى المُحْسِن بِذِكْرِ إحْسانِه نَظَرَ إلى مُجرَّدِ عَمَلِ اللِّسانِ. وقَوْلُ القائِلِ: إنّ الشُّكْرَ هو الاعتكافُ عَلَى بِساطِ الشُّهودِ بِإدامةِ حِفْظِ الحُرْمةِ، جامِعٌ لِأكثَرِ مَعاني الشُّكْرِ لا يَشُذُّ مِنهُ إلّا عَمَلُ اللِّسان... وهؤلاءِ أقوالُهم تُعْرِبُ عن أَحْوالِهم، فلِذلكَ تختلِفُ أجوبتُهم ولا تتّفِقُ، ثمّ قد يختلِفُ جوابُ كُلِّ واحِدٍ في حالتَيْنِ؛ لِأنّهم لا يَتكلَّمونَ إلّا عن حالتِهم الرّاهنةِ الغالِبةِ عَلَيهم؛ اشتغالًا بِما يُهمُّهم عَمّا لا يُهمُّهم، أو يتكلَّمونَ بِما يَرَونَه لائقًا بِحالةِ السّائل، اقتصارًا عَلَى ذِكْرِ القَدْرِ الذي يَحتاجُ إليه، وإعْراضًا عَمّا لا يَحتاجُ إلَيه..»[٢١].

عَلَى هذا النَّحْوِ تبدو البِنْيةُ المفهوميّةُ لِـ«الشُّكْرِ» في غايةِ التّركيبِ والتَّسَلْسُلِ المَنْطِقيّ، وبَدَا الغَزاليُّ حريصًا جِدًّا عَلَى إفهامِها، حالُهُ في ذلكَ حالُ المُعلِّمِ الذي يَستَنْفِدُ جُهْدَه في تَعْليمِ تَلاميذِه. ويَبْدُو لِلْمُتأمِّلِ أنّ الغَزاليَّ كانَ مُعلِّمًا لِلتّصوُّفِ المَبْنيِّ عَلَى مبادئ القرآنِ والسُّنّةِ النّبَويّة، ولا

(٢٠) نفسه، ص٨٤.

(٢١) نفسه، ص٨٤-٨٥.

تجدُ في الإِحْياءِ اجتهادًا لا يستنِدُ فيه المؤلِّفُ إلى القرآنِ والحديث.

ويقفُ الغزاليُّ طويلًا عندَ «الشُّكْرِ في حَقِّ اللهِ تعالَى»، ويُقدِّمُ تَمْثيلاتٍ مُفصَّلةً لِهذا الأَمْرِ، انسجامًا معَ قَصْدِه الأوّلِ في «إِحْياءِ عُلومِ الدِّين». ويُبيِّنُ حقيقةَ الشّاكِرِ والكافِرِ إزاءَ اللهِ سُبْحانَه، فيقولُ بَعْدَ إِسْهاب: «كُلُّ ما خُلِقَ في الدّنيا إنّما خُلِقَ آلةً لِلْعَبْدِ؛ لِيتوصَّلَ به إلى سَعادةِ الآخِرةِ ونَيْلِ القُرْبِ مِن اللهِ تعالَى. فكُلُّ مُطِيعٍ فهو بِقَدْرِ طاعتِه شاكِرٌ نِعْمةَ اللهِ في الأسبابِ التي استعملَها في الطّاعةِ. وكُلُّ كَسْلانَ تَرَكَ الاستعمالَ، أو عاصٍ استعملَها في طريقِ البُعْدِ، فهو كافِرٌ جارٍ في غيرِ مَحبّةِ اللهِ تعالَى. فالمَعْصِيةُ والطّاعةُ تشمَلُهما المَشِيئةُ، ولكنْ لا تَشْمَلُهما المحبّةُ والكراهةُ، بل رُبَّ مُرادٍ محبوبٌ، ورُبَّ مُرادٍ مَكْروهٌ»(٢٢).

وفي مفهومِ «الشُّكْرِ» يَلْفِتُ الغزاليُّ الانتباهَ إلى ضَرورةِ اعتقادِ التّوحيدِ لدى القائمِ بِفِعْلِ الشُّكْر، أو الشّاكِر؛ ويُنبِّهُ عَلَى دَقيقةٍ لا ينبغي أن تُفارقَ الأذهانَ، وهي أنّ نِسْبةَ الشُّكْرِ إلى العَبْدِ ليسَتْ حقيقيّةً؛ ذلكَ لِأنّ الفاعِلَ الحقيقيَّ لِلشُّكْرِ عندَ شُكْرِ الإنسانِ اللهَ هو الله تعالى، وما الإنسانُ إلّا مَحَلٌّ لِمعنَى الشُّكْرِ الذي وُجِدَ فيكَ بِالقُدْرةِ الأزليّة، فالإنسانُ فِعْلٌ للهِ، وهو أيضًا مَحَلٌّ لِأفعالٍ أُخرى ليس هو الفاعِلَ لَها؛ «فلَهُ الشُّكْرُ عَلَى كُلِّ حالٍ، وأنتَ موصوفٌ بِأنّكَ شاكِرٌ بِمعنَى أنّكَ مَحَلُّ المعنَى الذي الشُّكْرُ عبارةٌ عنه، لا بِمعنَى أنّكَ مُوجِدٌ له، كما أنّكَ موصوفٌ بِأنّكَ عارِفٌ وعالِمٌ، لا بِمعنَى أنّكَ خالِقٌ لِلْعِلْمِ ومُوجِدُه، ولكنْ بِمعنَى أنّكَ مَحَلٌّ له، وقد وُجِدَ بِالقُدْرةِ الأزليّةِ فِيكَ. فَوَصْفُكَ بِأنّكَ شاكِرٌ إثباتُ شَيئيّةٍ لَكَ، وأنتَ شَيْءٌ إذ جَعَلَكَ خالِقُ الأشياءِ، وإنّما أنتَ لا شيءٌ إذا كنتَ أنتَ ظانًّا لِنَفْسِكَ شيئًا مِن ذاتِكَ...

(٢٢) نفسه، ص٨٨-٨٩.

فتَبيّنَ أنّ الخَلْقَ مَجاري قُدْرةِ اللهِ تعالَى ومَحَلُّ أفعالِهِ، وإن كانوا هم أيضًا مِن أفعالِهِ، ولكنْ بعضُ أفعالِهِ مَحَلٌّ لِلْبعض»(٢٣).

ويلتفِتُ الغزاليُّ إلى تفصيلاتٍ دقيقةٍ ينطوي علَيْها مفهومُ «الشُّكْرِ»، فيَعْقِدُ لِذلكَ عُنوانًا جُزئيًّا، هو: «بَيانُ تمييزِ ما يُحبُّه اللهُ تعالَى عَمّا يكرهُهُ»، ثمّ يَجعَلُ معرفةَ ذلكَ شَرْطًا لِأداءِ فِعْلِ الشُّكْرِ وتَرْكِ الكُفْر. وفي هذا يقولُ: «اعْلَمْ أنّ فِعْلَ الشُّكْرِ وتَرْكَ الكُفْرِ لا يتمُّ إلَّا بِمَعْرفةِ ما يُحبُّهُ الله تعالى عَمّا يكرهُهُ، **إذ معنَى الشُّكْرِ استعمالُ نِعَمِه تعالَى في مَحابِّه، ومعنَى الكُفْرِ نقيضُ ذلكَ: إمّا بِتَرْكِ الاستعمالِ أو باستعمالِها في مَكارِهِه**»(٢٤).

ثمّ يُبيِّنُ أنّ آلَتَي تمييزِ ما يُحبُّهُ الله تعالَى مِمّا يكرهُهُ هما سَمْعُ الآياتِ والأخبار، وبَصيرةُ القَلْب. ومِن أَجْلِ الأوّلِ أرسلَ الله تعالى الرُّسُلَ الذين جاؤوا بِجَميعِ أحكامِ الشَّرْعِ في أفعالِ العباد؛ «**فمَن لم يَطَّلِعْ عَلَى أحكامِ الشَّرْعِ في جَميعِ أفعالِهِ لم يُمكنْهُ القِيامُ بِحَقِّ الشُّكْرِ أَصْلًا**»(٢٥).

أمّا الآلةُ الثّانيةُ، أي: البَصيرةُ والنَّظَرُ بِعَيْنِ الاعتبار، فهي عِنْدَه «إدراكُ حِكْمةِ اللهِ تعالَى في كُلِّ موجودٍ خَلَقَه، إذ ما خَلَقَ شيئًا في العالَمِ إلّا وفيه حِكْمةٌ، وتحتَ الحِكْمةِ مقصودٌ، وذلك المَقْصُودُ هو المحبوبُ»(٢٦).

وقد بَذَلَ المؤلِّفُ جُهْدًا كبيرًا في إيضاحِ الأَمْرِ، عَلَى طريقتِه في تقديمِ الحُدُودِ والأقسامِ والتَّمْثيلات.

وحقيقةُ الأَمْرِ هنا أنّنا نَقِفُ أَمامَ مُفكِّرٍ صُوفيٍّ عِمْلاقٍ، قادرٍ عَلَى التّفتيقِ والتّشقيقِ والتّنظيمِ، ذي أَناةٍ ورَويّةٍ وتَدبُّر، مُفكِّرٍ واسِعِ الثّقافةِ مُتنوِّعِ

(٢٣) نفسه، ص٨٩.

(٢٤) نفسه، ص٩٠.

(٢٥) نفسه.

(٢٦) نفسه.

المعارفِ والخِبْرات، مُحيطٍ تقريبًا بِجُمْلةِ المعارفِ التي سَبَقَتْ عَصْرَه، والمعارفِ التي عَرَفها عَصْرُه، ووَعَتْها أمصارُ الإسلامِ عَلَى امتدادِ قُرون. وفي هذا الشّأنِ رُبَّما يكونُ في مُتناوَلِ المُتأمِّلِ أن يقولَ: إنّ الغَزاليَّ ينتمي إلى صِنْفٍ مِن الصّوفيّةِ ظهَرَ عَلَى نحوٍ واضِحٍ بَعْدَ ذلكَ في المَنْهَجيّةِ الجامِعةِ بَيْنَ الغَوْصِ في التّجاربِ الرّوحيّة والتّنظيرِ الفلسفيّ، أُطْلِقَ عَلَيْه في فارِسَ «نَمَط الحِكْمةِ في الفَلْسفة»، يقولُ عنه (توشيهيكو إيزوتسو) البَحّاثةُ الياباني: «وفي شأنِ التّجربةِ الصّوفيّةِ أو الرّوحيّة، التي تُؤلِّفُ الأساسَ لِلْبِنْيةِ الكاملةِ لِنَمَطِ الحِكْمةِ في الفلسفة، يمكنُ أن نَبدَأَ بِمُلاحظةِ أنّه ليس نِتاجًا لِعَمَلٍ عَقْليٍّ صِرْفٍ عَلَى مستوى العقل. بل هو نِتاجٌ أَصْليٌّ لِنَشاطِ عَمَلٍ تحليليٍّ قَويٍّ صاحَبَه وأَيَّدَه فَهْمٌ حَدْسِيٌّ عَميقٌ لِلْحقيقةِ أو لِشَيءٍ وَراءَ ذلك النّوعِ مِن الحَقيقةِ المُتاحِ لِوَعْي البَشَر. ويُمثِّلُ نَمَطُ الحِكْمةِ تفكيرًا مَنْطِقيًّا قائمًا عَلَى شَيْءٍ يَفهَمُه ما يمكنُ أن نُسمِّيَهُ ما فَوْقَ الوَعْي - supra consciousness... إدْماجٌ تامٌّ لِلتّجربةِ الصّوفيّةِ والفِكْرِ التّحليليِّ في بِنْيةٍ مَفْهوميّةٍ لِلْفَلْسفةِ المَدْرسيّة»[٢٧].

وقد كان الغَزاليُّ يَعِي تمامًا أن ما هو عِنْدَه مُساوٍ تقريبًا لِنَمَطِ الحِكْمةِ في الفَلْسفةِ الذي أسّسَ له السُّهْرَوَرْدِيُّ وابنُ عَرَبيّ، وأنضجَه في فارِسَ فيما بَعْدُ صَدْرُ الدّينِ الشّيرازيُّ ومُلّا هادي السَّبْزَواريّ.

ولِأنّ النَّظَرَ إلى الأَمْرِ الواحِدِ، أو المفهومِ الواحِد، له اعتباراتٌ كثيرةٌ، يَصِلُ الغَزاليُّ إلى أن يقولَ في «بَيانِ تَمْييزِ ما يُحبُّهُ اللهُ تعالَى عَمّا يكرهه» مِن

(٢٧) Izutsu, Toshihiko. The Concept and Reality of Existence, Islamic Book Trust, Kuala Lumpur, 2007. p. 9.

ويمكنُ العَوْدُ إلى التّرجَمةِ العربيّة للكتاب بعنوان: مفهومُ الوجودِ وحَقيقتُه، ترجمة عيسى علي العاكوب، نشر دار نينوى في دمشق، ٢٠١٩م، ص١٢١.

جِهةِ اعتمادِ الشُّكْرِ والكُفْرِ عَلَيْه: «إنَّ للهِ تعالَى حِكْمةً في كُلِّ شَيْءٍ، وإنّه جَعَلَ بعضَ أفعالِ العِبادِ سَبَبًا لِتَمامِ الحِكْمةِ وبُلُوغِها غايةَ المُرادِ مِنها، وجَعَلَ بعضَ أَفْعالِها [العِباد] مانِعًا مِن تَمامِ الحِكْمة، **فكُلُّ فِعْلٍ وافقَ مُقتضَى الحِكْمةِ حتّى انساقتِ الحِكْمةُ إلى غايتها فهو شُكْرٌ، وكُلُّ ما خالَفَ ومَنَعَ الأسبابَ مِن أن تَنْساقَ إلى الغايةِ المُرادةِ بِها فهو كُفْران**»[٢٨]. فَلُبُّ لُبابِ «الشُّكْرِ» عندَه أن يكونَ العَبْدُ مُستعمَلًا في إتمامِ حِكْمةِ اللهِ تعالَى.

والحقيقةُ أنّ ما أَتَى به الغَزاليُّ في شأنِ مَفْهومِ «الشُّكْرِ» كثيرٌ وفي غايةِ التّفصيل. وقد آثَرْنا الاقتصارَ عَلَى هذا الذي أَتَينا به لِصِلَتِه الوُثْقَى بِما نحنُ إزاءَه مِن مفهومِ الشُّكْرِ، ولِضِيقِ مجالِ القولِ عن التّفصيل، الذي نَخالُ أنّ له مَحَلًّا آخَر.

المُحَصَّلُ الأَخِيرُ:

تابَعت الوَرَقةُ رِحْلةَ مفهومِ «الشُّكْرِ»، بِما هو مفهومٌ أخلاقيٌّ في التّصوّفِ الإسلاميِّ، منذُ أنْ كان مَدْلولًا لِمُفْردةٍ في العربيّةِ القديمةِ تعني ظُهورَ الأَثَرِ الإيجابيِّ في المُتأثِّرِ، مُمَثَّلًا له باخْضِرارِ شَجَرةِ البَرْوقِ، أو البَرْوَقةِ، بتأثيرِ السَّحابِ قَبْلَ أن تَغْدُوَ السَّحابُ غَيْثًا نافِعًا، أو مَطَرًا، إلى أن صارَ يعني الرِّضا باليَسير، ثمّ ذِكْرَ فَضْلِ المُنْعِمِ لِإنعامٍ يُولِيكَهُ، في العَصْرِ الجاهليِّ. وهكذا إلى أن بَزَغَ فَجْرُ الإسلام، وسَطَعَ نُورُه في القلوبِ والعقولِ، فهَيّأ القرآنُ والسُّلُوكُ النَّبَويُّ عقولَ المُؤمنينَ لِأن تُدْرِكَ في «الشُّكْرِ» عَناصِرَ مفهوميّةً جَديدةً، أظهَرَتْه مُوجَّهًا مِن المُؤمنينَ إلى المُنْعِمِ الحَقِّ الأَوْحَدِ سُبْحانَه، ثمّ مِنْهُ جَلَّ وعَلا إلى الشّاكِرينَ. وعَلَى هذا النَّحْوِ صِرْنا نَجِدُنا أمامَ شاكِرينَ عَرَفُوا وَحْدةَ المُنعِمِ، الذي خاطَبَهم في القرآنِ مُباشَرةً: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النّحل: ١٨]، وعَدَّدَ لهم كثيرًا مِن نِعَمِه عَلَيْهم، وبيّنَ لَهُم أنّه الأَعْلَمُ بِالشّاكِرينَ، وأنّه لا مَحالةَ

(٢٨) إحياء علوم الدّين، سابق، ج٤ ص٩٥.

جازِيهم ثَوابَ صَنِيعِهم هذا. وبِعبارةٍ في غايةِ القُوّةِ البلاغيّةِ حَدّدَ لَهُم العلاقةَ بَيْنَهُ سبحانه وبَيْنَهم عَلَى هذا النّحو: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وهكذا أشاعَ القرآنُ الكريمُ والسُّلُوكُ النَّبويُّ مفهومًا متطوِّرًا لِ«الشُّكْر» ساوَى بَيْنَ الشُّكْرِ والإيمان، حتّى صار مُقابِلًا تمامًا لِنَقيضِ الإيمان، وهو الكُفْرُ وإنكَارُ الحَقِّ تعالَى. ثمّ ابتداءً مِن مُنتصَفِ القَرْنِ الهِجْريِّ الثّاني أخذتْ عُقولُ أَهْلِ الإحسانِ وقُلُوبُهم الطّالِبةُ للهِ وَحْدَه ترى في «الشُّكْرِ» مَنْزِلًا مِن مَنازِلِ السّائرين، يُعرَّفُ ويُحَدُّ ويُجتهَدُ كثيرًا في إفهامِ عناصِرِه ومُكوِّناتِه، إلى أن هَيَّأ اللهُ سُبْحانَه مَن يُقدِّمُ لِ«الشُّكْرِ» دِراساتٍ مُفصَّلةً تناوَلَتْ حَقيقتَه وعناصِرَهُ الرّوحيّةَ والبواعِثَ عَلَيْهِ، والموانِعَ التي تحولُ بَيْنَ العِبادِ وبَيْنَه، حتّى جعَلَهُ بعضُهم دَرجاتٍ: الشُّكْرُ في المَحابِّ، والشُّكْرُ في المكارِهِ، وألّا يَشْهَدَ العَبْدُ إلّا المُنْعِمَ؛ «فإذا شَهِدَ المُنْعِمَ عُبودةً استعظَمَ مِنه النِّعْمةَ، وإذا شَهِدَهُ حُبًّا استَحْلَى مِنهُ الشِّدّةَ، وإذا شَهِدَه تَفْريدًا لم يَشْهَدْ مِنْهُ شِدّةً ولا نِعْمةً»[٢٩].

واللهُ سُبْحانَه الهادي إلى سَواءِ السَّبيل.

* * *

المصادر والمراجع

آ- في العربيّة:

- القرآن الكريم.
- البُخاريّ، صَحيحُه بِشَرْح الكرمانيّ، المطبعة البهيّة، القاهرة، ١٩٣٩م.

(٢٩) شَيْخُ الإسلامِ عبدُاللهِ الأنصاريُّ الهَرَويُّ (ت ٤٨١هـ)، مَنازِلُ السّائرين، بتحقيق أحمد السّايح وتَوفيق وَهْبة، مكتبة الثّقافة الدِّينيّة، القاهرة، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص٩١-٩٢.

- أبو الفَتْح البُسْتيّ، ديوانُ شِعْرِه، بتحقيق دُرِّيّة الخطيب ولطفي الصّقّال، نَشْرةُ مَجْمَع اللّغة العربيّة في دمشق، ١٩٨٩م.
- مُحمَّد علي التّهانَويّ، كشّافُ اصطلاحاتِ الفُنونِ والعلوم، بِعِناية رفيق العجم وآخَرين، مكتبة لُبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م.
- الشَّريفُ الجُرْجانيُّ، كتابُ التّعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٨م، ص١٣٣.
- الجَوْهَريُّ، تجديدُ صِحاح العلّامةِ الجَوْهَريّ، إعداد وتَصْنيف نديم مَرْعَشْلي وأُسامة مَرْعَشْلي، دار الحضارة العربيّة، بيروت، ١٩٧٤م.
- الحُصَينُ بنُ الحِمام المُرِّيّ، سِيرتُه وشِعْرُه، بتحقيق شريف علاونة، دار المناهج، عَمّان، ٢٠٠٢م.
- الرّاغبُ الأصفهانيُّ، مُفْرداتُ ألفاظِ القرآن، بتحقيق صفوان داوودي، نَشْر دار القَلَم في دمشق، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- ابنُ رَشيق القَيْرَوانيّ، العُمْدة في مَحاسِنِ الشّعرِ وآدابِه ونَقْدِه، بتحقيق مُحمّد مُحْيي الدّين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ١٩٨١م.
- زُهَير بنُ أبي سُلْمَى، ديوانُ شِعْرِه، بتحقيق فخر الدّين قباوة، المكتبة العربيّة، حلب، ١٩٧٠م.
- الزّمَخْشَريّ، الكشّاف، نَشْرةُ دار الكتابِ العربيّ، بيروت.
- حاتم الطّائيّ، ديوانُ شِعْرِه، بتحقيق عادل سليمان جمال، دار المَدَنيّ، القاهرة.
- أبو عُبَيْدة، مَعْمَرُ بنُ المُثنّى، كتاب النّقائض، بِعِناية مُحَمّد أحمد عبدالعزيز سالم، دار الكتب العلميّة، بيروت.
- شَيْخُ الإسلامِ عبدُاللهِ الأنصاريُّ الهَرَويُّ، مَنازِلُ السّائرين، بتحقيق أحمد السّايح وتَوفيق وَهْبة، مكتبة الثّقافة الدِّينيّة، القاهرة، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
- الغزاليّ، إحياءُ عُلومِ الدّين، نَشْرة دار الفِكْر، بيروت.

- أحمدُ بنُ فارس، معجم مقاييس اللّغة، بِتحقيق عبدالسّلام مُحمَّد هارون، نَشْرةُ اتّحادِ الكُتّابِ العرب في دمشق، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- الفَخْرُ الرّازيّ، التّفسيرُ الكبير، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- ابن قُتَيبة، الشِّعْرُ والشُّعَراء، بِتحقيق م. ج. دي غويه، نَشْرةُ مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٢م.
- أبو القاسم عبدُالكريم القُشَيريّ، الرّسالة القُشَيْريّةُ في عِلْمِ التّصوّف، نَشْرةُ دار الكتاب العربيّ، بيروت.
- عمرو بنُ كُلثوم، ديوانُ شِعْرِه، بِعناية علي أبو زيد، دار سعد الدّين، دمشق، ١٩٩١م.
- المُتنبِّي، شَرْحُ ديوانِ شِعْرِه، بِعناية عبدالرّحمن البرقوقيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٨٦م.
- أبو طالب المكّي، قُوتُ القلوب، بِتحقيق محمود الرّضواني، مكتبة دار التّراث، القاهرة، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- مُنير البَعْلَبكيّ، المورِدُ الأكبر (قاموس إنكليزيّ - عربيّ)، نَشْرةُ دار العِلْمِ للملايين، بيروت، ١٩٦٧م.
- المَيْدانيّ، مَجْمَعُ الأمثالِ، نَشْرةُ مطبعة عبدالرّحمن مُحمّد، القاهرة، ١٣٥٢هـ.
- الإمامُ النَّوَويُّ، شَرْحُ مَتْنِ الأربعينَ النّوَويّة، بِعناية لويس بوزيه، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٢م.
- هُدْبةُ بنُ الخَشْرَمِ العُذْريُّ، ديوانُ شِعْرِه، بِتحقيق يحيى الجبوريّ، دار القَلَم، الكويت، ١٩٨٦م.
- الهُذَلِيُّونَ، ديوانُ أَشْعارهم، دار الكتب المِصْريّة، القاهرة، ١٩٤٥م.

- مُحمَّدُ بنُ إبراهيمَ الوَطْواط، غُرَرُ الخَصائصِ الواضحة، بِعناية إبراهيم شَمْس الدّين، دارُ الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠٠٨م.
- ياقوت الحَمَوِيُّ: معجم البلدان، دار صادر، بيروت.

ب- في الفارسيّة:

- سَيِّد جعفر سَجّادي: فرهنگ اصطلاحاتِ وتعبيرات عرفانى، چاب نُهم انتشارات طهورى، طهران ١٣٨٩هـ.ش-٢٠١٠م.
- مهين پناهى: اخلاقِ عارفان، أخلاق المُتصوِّفة مِن خلالِ المتونِ العِرْفانيّة: منذ البَدْء إلى أوائل القرن السّابع الهجريّ، انتشارات روزنه، طهران، ١٣٧٨هـ.ش-١٩٩٩م.

ج- في الإنكليزيّة:

1- Izutsu, Toshihiko. Ethico - Religious Concepts in the Qur'an. McGil University Press, Montreal, Canada, 1966.
2- _____, The Concept and Reality of Existence. Islamic Book Trust, Kuala Lumpur, 2007.
3- Nakamura, Kojiro. Ghazali and Prayer. Islamic Book Trust, Kuala Lumpur, 2001.

* * *